7
الفعل كدعاية

في «الحرب على الإرهاب»، استخدم العنف المتطرف واللامشروع لإضفاء الشرعية والضرورة عليه، وهذا مثال مقلق يجسد ما دعته هانا ارندت «الفعل كدعاية». وفي تفسيرها لهذا التعبير، أشارت أرندت إلى «مزايا الدعاية التي تضيف باستمرار قوة التنظيم» إلى صوت الحجة الضعيف وغير الموثوق، وبالتالي تحقق ـ إذا جاز التعبير ـ «كل ما تقوله بأسلوب ارتجالي»[1]. برأي ارندت، عملت الدعاية المستندة إلى الواقع بشكل أفضل حتى من خطاب جوزيف غوبلز البلاغي. وبالرغم من تركيز بؤرة اهتمامها على الأسلوب الذي يمكن أن يقنع فيه الفعل كدعاية الآخرين، إلا أن المفهوم يمكن أن يساعد أيضا في تفسير كيف تشرعن الانتهاكات التعسفية ذاتها أحيانا في عيون مرتكبيها.

لاحظنا آنفا مدى إغراء اليقين في أوقات هيمنة الغموض وعدم اليقين، والرغبة في الحلول البسيطة والأهداف الملموسة. ويمكن للفعل كدعاية أن يعزز الشعور المطمئن الغريب باليقين، ويساعد على لي الحقيقة لتساير الصورة المشوهة والمحرفة والدعائية للعالم. كما يشوه أيضا مدركاتنا عن الواقع بحيث تتضاءل الفجوة الفاصلة بين إدراك جماهير العامة والدعاية الرسمية. ويساعدنا مفهوم هانا ارندت على فهم كيف اعتمد المولعون بشن «الحرب على الإرهاب» على ركيزة تفتقد العقلانية في واقع الأمر (حل سحري لمشكلة الإرهاب) وجعلوها تبدو من خلال أفعالهم أمام العديد من الناس (والأهم، أمام شرائح واسعة من الناخبين الأمريكيين) عقلانية ومعقولة في آن معا.

في الحياة اليومية، تحل النوائب بالناس بمحض الصدفة، لكن الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي الهائل في الولايات المتحدة فاقم شعورا بانعدام الأمان وغياب اليقين ضاعفته أحداث الحادي عشر من سبتمبر. فهمت هانا ارندت كيف يمكن لرغبتنا في اليقين وتوقع الآتي أن تغذي وتدعم الإيديولوجيات التعسفية والعقائد الجائرة. كتبت تقول: «ما ترفض الجماهير الاعتراف به هو المصادفة العرضية التي تتخلل الواقع الحقيقي»[2]. ولذلك فإن الاتساق المتماسك، بأي طريقة شُيد بها، يحظى بجاذبية شديدة:

> أمام الاختيار بين مواجهة تنامي الفوضى والعشوائية الشاملة للانحطاط والفساد أو الركوع أمام اتساق أشد الإيديولوجيات تزمتا وتوهما وخرافة، سوف تفضل الجماهير على الأرجح البديل الثاني وتستعد لدفع الثمن بالتضحيات الفردية ـ ليس لأنها قوية أو شريرة، بل لأن سبيل النجاة هذا يكسبها في أوقات الكوارث العامة الحد الأدنى من احترام الذات[3].

رأت أرندت كيف يمكن لاحترام الذات هذا أن يأتي من تشويه سمعة «الآخر» أو حتى مهاجمته، وكيف يولد هذا العدوان، علاوة على ذلك، شرعية (زائفة) للذات. شكل جزءا من مصدر هذه «الشرعية» ما دعي بـ«الاعتقاد بعدالة العالم»، حيث يفترض الناس فعلا أن العقاب يتضمن وقوع جريمة، وحيث يستخدم هذا الافتراض لحمايتهم من الخوف من عالم تسوده العشوائية[4]. ومن المهم في دلالته أن «الاعتقاد بعدالة العالم» قد يكون أكثر إغراء حين يصبح العالم ـ والاتهامات ـ أكثر عشوائية: وبالتالي، كلما زادت لامعقولية وتهور أفعال إدارة بوش ـ مثلا ـ تعاظم الإحساس بالحاجة إلى طمأنة الذات والتوكيد لها بأنه «لابد من وجود سبب» لاختيار الضحايا (ولذلك «نحن» في أمان).

أشارت أرندت إلى وسائل أخرى يمكن من خلالها أن يولد العنف شرعيته الخاصة، ألا وهي السماح للزعماء بتحقيق تنبؤاتهم وتوقعاتهم: أولا، حين يشابه الناس صورة مشوهة ودعائية مرسومة لهم (كأن يعتبروا في مرتبة أدنى من البشر أو أن الأمراض تتفشى بينهم)؛ ثانيا، حين «تُكشف» القوانين التاريخية المزعومة حول انتصار جماعة معينة أو فكرة محددة باعتبارها دقيقة وصحيحة؛ ثالثا، حين «تكشف» على نحو مشابه أيضا المُثل الإنسانية باعتبارها غير واقعية وغير ذات صلة. مرة أخرى، سوف تثبت هذه الأفكار صلتها بـ«الحرب على الإرهاب».

«الاعتقاد بعدالة العالم»: القوة حق

في الحالة النمطية، تولد جزء من «الدليل» الذي يشرعن مطاردة الساحرات من المطاردة ذاتها. إذ يساعد الاعتراف تحت التهديد والمعاناة على جعل الاضطهاد أكثر معقولية مثلما رأينا. لكن العقاب يمكن بحد ذاته أن يتضمن الذنب. وكما لاحظت هانا ارندت في سياق المحرقة النازية فإن «المنطق البدهي السليم رد على فظائع بوكنوالد* واوشفيتز** بحجة معقولة: ـ أي جريمة فظيعة ارتكبها هؤلاء الناس لكي يتعرضوا لمثل هذه المعاناة!»[5] قد يبدو أخذ الأدلة الأخلاقية من نظام العقوبة موقفا خاضعا ومتذللا، لكنه جزء أيضا من كيفية نمو وتربية أي إنسان وتعلمه لـ«الصواب» و «الخطأ» ـ عبر ملاحظة الفعل الذي يعاقب عليه وذلك الذي لا يعاقب عليه.

كيف عرف الأمريكيون والبريطانيون في ربيع عام 2003 أن العراق هو العدو؟ إنه العدو بالتأكيد، والدليل دخولنا في حرب معه! وبمعنى من المعاني، «أثبتت» ذنب

* قرية في وسط ألمانيا (قرب فيمار) أقام فيها النازيون معسكر اعتقال خلال الحرب العالمية الثانية. (م)

** مدينة في جنوب بولندا أقام فيها النازيون أكبر معسكر للاعتقال خلال الحرب العالمية الثانية. (م)

العراق حقيقة أنه وسم بعلامة فارقة من أجل معاقبته. وعلى نحو أكثر عمومية، ربما اتخذ تطرف وعنف «مكافحة الإرهاب» (تجاهل الأمم المتحدة، غزو العراق، انتهاك حقوق الإنسان في غوانتانامو والقواعد العسكرية الأمريكية الأخرى..) كدليل يثبت ـ على مستوى ما ـ حجم الذنب الذي اقترفته الأهداف.

لاحظ عالم الاجتماع ستانلي كوهين في عام 2001 أنه وفقا لـ«الاعتقاد بعدالة العالم»، «يستحق [الضحايا] المعاناة بسبب ما فعلوه، أو لابد أنهم فعلوه، أو دعموا وأيدوا فعله (أو سيفعلونه يوما ما إذا لم نتصرف الآن)»[6]. وهذه صيغة تنبأت بشكل غريب بالتبريرات التي قدمت لمهاجمة العراق عام 2003 أما النزعة العامة للاستدلال على الذنب من العقاب فيبدو أنها ساعدت إدارة بوش على تجاهل لا القانون الدولي فقط، بل الركن المحوري للقانون عموما: يجب إثبات الذنب قبل إنزال العقاب بالمذنب.

المستويات المرتفعة من الإذعان لأحكام الحكومة حظيت بأهمية هنا، خصوصا في الولايات المتحدة: شعور بأن «إدارتنا تعرف حتما ما تفعله»[7]. فقد أبلغ الأمريكيون مرارا وتكرارا بالصلات الجامعة بين العراق وهجمات الحادي عشر من سبتمبر. لم تكن الأدلة دامغة، لكن اللغة المستخدمة لحث الناس على القبول والاقتناع نجحت على أية حال. فقد أظهر استطلاع للرأي أجري في تشرين الأول/ أكتوبر 2002، أن 66% من الأمريكيين قالوا إنهم يعتقدون بأن صدام حسين متورط في هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، وأن 79% منهم يعتقدون بأن لدى العراق، أو كان قريبا من امتلاك، أسلحة نووية[8]. وأشار استطلاع آخر أجري في شباط / فبراير 2003إلى أن 72% من الأمريكيين يعتقدون أن صدام حسين متورط شخصيا على الأرجح في هجمات الحادي عشر من سبتمبر[9].

يبدو أن إدارة بوش قد فهمت جيدا الفضائل المريبة لمقاربة «الفعل كدعاية»، حيث اعتقد كبار المسؤولين بأن إظهار القوة في حد ذاته يمكن أن يشكل دعاية كامنة

قوية، وأن «القوة» سرعان ما تصبح «حقا» وصوابا في واقع الأمر. ولذلك، قال كارل روف، المستشار المقرب من بوش، عن الحرب على الإرهاب: «كل شيء سيقاس وفقا لنتائجه، فالمنتصر دوما على حق. والتاريخ ينسب إلى المنتصر سمات وصفات ربما لم يمتلكها. وكذلك للمهزوم»[10] (عبر هتلر عن رأي مماثل حين قال: «سوف أقدم سببا دعائيا لبدء الحرب، بغض النظر هل هو معقول أم لا. فلن يسأل أحد المنتصر بعد انتصاره هل كان صادقا أم لا. وعند بدء وشن الحرب لا يعود الحق مهما، بل النصر»)[11]. وفيما يتعلق بالهجوم على العراق عام 2003، علق أحد كبار مستشاري البيت الأبيض قائلا: «السبيل إلى كسب القبول الدولي هو الفوز. هذه هي الديبلوماسية: الفوز»[12]. وقال بوش نفسه:

> أومن بالنتائج.. أعرف أن العالم يراقبنا عن كثب، وسيتأثر بالنتائج المتحققة.. لن نستطيع إقناع الناس جميعا بالموافقة على القوة واستخدام القوة.. لكن الفعل ـ الفعل الواثق الذي يعطي نتائج إيجابية سوف يوفر نوعا من القوة المساعدة التي تدفع الدول والقادة المترددين للحاق بالركب[13].

لنتذكر أيضا الاقتراح المفزع الذي قدمه مستشار بوش أمام الصحفي رون سسكيند: «نحن إمبراطورية الآن، وحين نتصرف نوجد واقعنا الخاص. وبينما تدرس أنت ذلك الواقع ـ بحكمة وفطنة ـ سوف نتصرف من جديد، لنوجد وقائع جديدة، يمكنك دراستها أيضا». إنه سبيل يفضي إلى الجنون، لكنه مقنع، وفاسد وملتو في آن.

في مدة الاستعداد للحرب، أقلق رئيس الوزراء الإيطالي بيرلسكوني الرأيُ العام الإيطالي. لكن بوش قال له في كانون الثاني/ يناير 2003: «راقب الأمر، سوف يتغير الرأي العام. نحن نقود جمهور العامة في بلادنا»[14]ومن بين اللاعبين الدوليين، لم يكن الاستعداد لاتباع خطى بوش مقتصرا على بلير وبيرلسكوني وأزنار. على سبيل

بل ربما يتحولون إلى ضحايا. وأصدر بوش نسخته الشهيرة عن هذا التهديد حين قال بإصرار «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا في المعركة ضد الإرهاب».

في حين أن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق هارولد ولسون تجنب إرسال الجنود البريطانيين إلى فيتنام، إلا أن توني بلير بدا مستعدا للسقوط في فخ «القوة المساعدة» التي أشار إليها بوش. وبالتوافق مع تحليل كولن باول آنذاك، أبلغ بلير مجلس العموم في تشرين الثاني/ نوفمبر 2000: «نعتقد أن نظام العقوبات نجح بصورة فعالة في احتواء صدام حسين»[21]. لكن يبدو أن بلير قد اقتنع أيضا بحتمية الحرب. وأتت اللحظة المفتاحية في لقائه مع بوش في تكساس (نيسان/ أبريل 2002) الذي ساعد في إقناع رئيس الوزراء بأن بوش مصمم على شن الحرب ضد العراق[22]. وعاد ملتزما بدعم العمل العسكري من أجل تغيير النظام في العراق (اعتماداً ـ كما ذُكر ـ على فهم مفاده أن الجهود ستبذل أولا لإزالة أسلحة الدمار الشامل بواسطة عمليات التفتيش عن الأسلحة، ومن ثم لتشكيل تحالف يؤثر في الرأي العام ويحصل على تأييده)[23]. وشملت استعدادات بلير غداة العودة إلى بريطانيا إبلاغ وزير الخزانة بإعادة إعداد حسابات الميزانية لدفع تكاليف الحرب[24]. لكن كان لـ«الحتمية» وجهان مختلفان بالنسبة لبلير: يعلق جون كامبفنر في كتابه «حروب بلير»، بالقول أن رئيس الوزراء شرع في أداء مهمته الفورية في تحضير الرأي العام للعمل العسكري، مع الاحتفاظ بواجهة تشير إلى أن الحرب «ليست حتمية»[25]. ففي المرحلة المبكرة من الاستعدادات للحرب، سيبدو إعلان أن الحرب حتمية ويتعذر تجنبها إذعانا ذليلا بدون شك لواشنطن. لكن من المهم في دلالته أنه حالما توجه الجنود الأمريكيون إلى العراق، كان بلير على أتم الاستعداد لتغيير المسار واستخدام فكرة الحتمية وزخم الأحداث كوسيلة أداتية لإقناع جمهوره وحزبه. وشمل خطابه أمام مجلس العموم في آذار/ مارس 2003 الفقرة الآتية: «هذا خيار صعب. لكنه واضح تماما: إما سحب الجنود البريطانيين والتراجع؛ أو التشبث

بالمسار الذي وضعناه»[26]. وشعر بلير بالقلق من الضرر الذي قد يصيب العالم نتيجة الانتصار الأمريكي الأحادي؛ واعتمادا على هذا المنطق، يتوجب على بريطانيا الذهاب إلى الحرب لتجنب ذهاب أمريكا إلى الحرب بمفردها[27]. وفي هذه الأثناء، عزز بلير ثقة بوش وكارل روف بأن النصر سوف يولد مؤيديه وأنصاره. تذكر روبن كوك أن بلير «افترض دوما في العديد من المناقشات التي دارت بيننا خلال الفترة السابقة على الحرب، أن حرب [العراق] ستنتهي بالنصر، وأن النصر العسكري سوف يسكت المنتقدين»[28].

على الصعيد الداخلي، ثبت أن «الفوز» أداة مفيدة في الحث والإقناع والترهيب والتهديد. وجرى كبت وقمع الأصوات المنشقة داخل حزب العمال: أولا، من أجل التفوق على المحافظين ثم من أجل الشرعية التي يمنحها الفوز. لاحظ كامبفنر أن بلير «هيمن على حزبه طيلة عقد من السنين، وأتاحت له سلطته الحصول بسرعة على الموافقة على سياساته الخارجية والداخلية حتى حين يختلف مع النواب والناشطين من أعضاء حزبه ــ بل حتى مع أعضاء حكومته»[29]. وعلى حد تعبير الكاتبة البريطانية بياتريكس كامبل: «استسلم الحزب لـ خيميائيين زعموا أنهم، دون غيرهم، يملكون قوى الفوز»[30]. وبالطبع، فإن إيديولوجيا السوق الحر التي اعتنقها بوش، وبلير إلى حد كبير، تشكل في حد ذاتها نوعا من التوقير والاحترام لـ«الفائزين والرابحين»: البقاء للأصلح فقط، والنجاح يثبت ضمنا نشاطك وحيويتك وفضيلتك. بالنسبة لجورج سوروس، مثلت "الداروينية الاجتماعية" للأصولية السوقية حليفا طبيعيا للأصولية الدينية، وجرى تعزيز الاثنتين معا بشكل خطير اعتمادا على الثقة المتولدة عن انهيار النظام السوفييتي وتقدم العولمة.

من المتوقع أحيانا أن يذعن القانون الدولي ذاته لـ«العمل الواثق» الذي شعر بوش بأنه سيولد الإذعان والامتثال. لاحظ ديفيد فروم وريتشارد بيرل أنه «إذا كانت

الأمم المتحدة لا تستطيع أن / أو لن تراجع وتعدل قواعدها وأنظمتها بطرائق تصادق بدون مساءلة قانونية على الإجراءات التي يجب على الولايات المتحدة اتخاذها لحماية الشعب الأمريكي، فعلينا إذن أن نرفض بشكل صريح وبدون خجل سلطة هذه القواعد والأنظمة»[31]. هذا مفهوم غريب للقانون الدولي، على أقل تقدير. وبعيد بدء الهجوم على العراق، توقع بيرل بحماس: «حين نكنس ركام الحرب لتحرير العراق ونتمعن بنتائجها، سيكون من المهم أن نحافظ على/ ومن الأفضل أن نفهم الحطام الفكري للزهو الليبرالي بالأمان من خلال القانون الدولي الذي تديره المؤسسات الدولية»[32]. وفي حين وسم مسؤولو إدارة بوش الأمم المتحدة بالضعف و«الخروج عن السياق»، لعبت سياسة الولايات المتحدة دورا حاسما في إضعاف الأمم المتحدة ـ لا فيما يتعلق بالعراق فقط، بل قبل ذلك أيضا. فخلال الحرب الباردة، استخدمت الولايات المتحدة بكل عناد حق النقض لإحباط قرارات مجلس الأمن[33]. كما نكثت مرارا بالتزاماتها التمويلية، وأنكرت وتجاهلت بأسلوب مشين عمليات الإبادة الجماعية في رواندا عام 1994 ولربما غلّ إضعاف الأمم المتحدة من خلال «العمل الواثق» بعض الثمار: هبوط مستوى ثقة الناس بالأمم المتحدة بشكل حاد في أعقاب الهجوم على العراق: لا داخل الولايات المتحدة فقط، بل في بريطانيا وفرنسا وألمانيا أيضاً[34]؛ ولا نعرف كم سيدوم هذا التأثير، لكن العمل الأحادي الجانب أدى من جوانب عديدة (ولربما كان ذلك جزءا من القصد) إلى الاعتقاد بأن «حقوق الإنسان» و«القانون الدولي» يمثلان ذروة السذاجة. مرة أخرى نشير إلى أن ارندت رأت ذلك بوضوح لا لبس فيه، حيث قدمت الحجة على أن الدعاية المستندة إلى الأمر الواقع نجحت جزئيا لأن:

> المحنة اللامعقولة التي حلت بجماعة من الأبرياء الذين يتكاثر عددهم باطراد شابهت تمظهرا عمليا لمزاعم الحركات التوتاليتارية ـ التي تسخر من البشر ـ بعدم وجود شيء ثابت مثل حقوق الإنسان، وأن توكيدات

الديمقراطيات على عكس ذلك ليست سوى تحيز، ونفاق، وجبن في وجه الجلالة القاسية للعالم الجديد. وأصبحت عبارة «حقوق الإنسان» ذاتها بالنسبة للمعنيين جميعا ـ ضحايا ومضطهدين ومتفرجين على حد سواء ـ دليلا على المثالية اليائسة أو على النفاق العاجز الضعيف[35].

ما إن بدأ احتلال العراق، حتى جرى التعبير عن الأمل «بأن تعتبر القوة بمثابة حق» فيما يتعلق بالتمرد أيضا. أحد الضباط الأمريكيين الذي شارك في الهجمات على الفلوجة شدد على أن دور العدوان المتبوع بـ«العمليات النفسية»*، «يعود دوما إلى موضوع حتمية القبيلة المتفوقة»[36]. أما الصحفي روبرت كابلان فقال معلقا من العراق: «ينجذب الناس من جميع الثقافات نحو القوة.. إذ تسود في العراق على نحو خاص ذهنية زعيم القبيلة»[37].

تحقيق التوقعات والتوكيدات

اعتبرت هانا ارندت أن الرغبة في التوقع والاتساق توجد الفرص المناسبة للأنظمة التوتاليتارية لتثبيت وتعزيز سلطتها من خلال تحقيق تنبؤاتها وتوقعاتها. ولربما يبدو هذا خيارا مغريا لبعض البلدان الديمقراطية أيضا؛ ومع تهميش الحريات المدنية على نحو متزايد وإذعان وسائل الإعلام الجماهيرية، لا يتضح على الدوام الفارق المميز بين التوتاليتارية والديمقراطية كما قد نأمل. قال نورمان ميلر عن الولايات المتحدة: «أعتقد أننا نمر الآن بمرحلة ما قبل التوتاليتارية»[38].

الخضوع للقوانين

لاحظت هانا ارندت أن كتلة واسعة من الجماهير«تميل إلى الإيديولوجيات كلها لأنها تفسر الحقائق باعتبارها مجرد أمثلة على القوانين وتلغي المصادفات الاتفاقية

* «العمليات النفسية» (psyops) تشمل استخدام وسائل الإعلام ضد العدو/الخصم بهدف تشكيك أفراده بعدالة قضيتهم وثقتهم بقدراتهم، وقد توجه إلى حلفائهم للتخلي عن مساندتهم. (م)

عبر ابتكار قوة كلية القدرة تشمل الجميع وتشكل أصل كل حادث كما يفترض»[39]. علاوة على ذلك، يرجح أن ينجذب الناس في الفترات التي يسودها الغموض وعدم اليقين نحو إيديولوجية تزعم أنها تعمل على صياغة التاريخ؛ ليتماشى مع قوانين تاريخية طويلة الأجل، وبالتالي تعيد ترسيخ بعض الشعور بالسيطرة والتحكم. في حالة النازيين، كان القانون التاريخي طويل الأجل نوعا من الداروينية العرقية؛ وبالنسبة للحكومات السوفييتية، انتصارا محتوما ومتوقعا بأسلوب علمي لطبقة البروليتاريا[40]. وأشارت أرندت إلى أن النازيين تحدثوا عن أعراق سرعان ما ستتعرض للانقراض، وأن النظام السوفييتي تحدث عن الطبقات المحتضرة، وأن الأعمال الإجرامية لهذين النظامين الشموليين ساعدت على تثبيت أركان سلطة كل منهما وعلمه الكلي عبر تحقيق هذه التوقعات والتنبؤات[41]. لم يستطع جورج بوش مجاراة هذه الأعمال المنكرة السابقة؛ لكنه حرص بالتأكيد على التشديد بأنه يشكل مع الولايات المتحدة جزءا من خطة ربانية جليلة تتماشى مع مشيئة الله ونواميسه. في خطاب القسم لولايته الثانية الذي ألقاه في شهر كانون الثاني/ يناير 2005، أشار إلى الحرية باعتبارها «قوة التاريخ»، وأضاف «إن بمقدورنا التقدم إلى الأمام واثقين كل الثقة بالانتصار النهائي للحرية.. التاريخ شهد مد وجزر العدالة، لكن له أيضا وجهة مرئية، وضعتها الحرية وخالق الحرية»[42]. وقال في مناسبة أخرى: [الحرية هي] «خطة سماوية للبشرية وأفضل أمل للتقدم هنا على الأرض»[43]. وهذا يتجاوز إلى حد ما القول «الله معنا»؛ فهو إصرار ملح على أن وجهة التاريخ إلى جانبنا، وأن بمقدورنا ـ من خلال «الفعل الواثق» الذي نادى به بوش سابقا ـ إثبات ذلك. وبالرغم من أن هذا الموقف يزعم إجلال وتوقير الخالق، إلا أنه يعبر في نهاية المطاف عن إجلال وتوقير الذات: الذات التي ستحرز بثقتها وعنفها النصر النهائي، الذي سيضمن الموافقة والقبول من الأمم الأخرى ويعيد التوكيد في الوقت ذاته على المباركة الإلهية للمشروع التغييري طويل الأجل. ولا ريب أن هذه القدرة على «كشف

المباركة الإلهية» تشير إلى أن العنف «الناجح» يمكن أن يخدم كوظيفة لا كثروة بالنسبة لبروتستانت ماكس فيبر.

شعور مشابه بالثقة عبر عنه أحيانا الأصوليون الإسلاميون، الذين يعتبرون انتصار الإسلام «حتميا»، تماما كانتصار الاشتراكية بالنسبة للاشتراكيين[44]. وإلى المدى الذي ترى عنده المنظومات الاعتقادية الأصولية الله كقوة تتدخل بفاعلية في العالم، سوف يظهر دوما إغراء رؤية أي فعل يتخذه البشر باعتباره متمتعا بمباركته تعالى أو عملا من أعماله[45]. الأمر لا يقتصر على مجرد سؤال من الذي يقف الله في صفه بل من يستطيع إظهار ذلك من خلال الانتصار. ولذلك، اعتبر عنف مكافحة الإرهاب من قبل ممارسيه أنه لا يحظى بمباركة الله فقط بل ينقض اعتقاد الإرهابيين بأن الله والتاريخ إلى جانبهم. في أيلول / سبتمبر 2003، لاحظ بوش أن الإرهابيين قبل الحادي عشر من سبتمبر «اقتنعوا بأن الأمم الحرة في حالة من الانحلال والفساد والضعف. فتنامت جسارتهم، معتقدين أن التاريخ يقف إلى جانبهم». وأضاف إن الحرب على الإرهاب عكست هذا النمط[46].

امتزج مع فكرة الخطة (الربانية) الجليلة الاعتقاد بأن الحرب تقرّب يوم القيامة المتوقعة والعودة الثانية للمسيح، وهي فكرة شاع التعبير عنها لدى اليمين التبشيري في أمريكا[47] حتى بلير «غازل» هذه الصورة الرؤيوية: «كان الحادي عشر من سبتمبر بالنسبة لي وحيا كاشفا ملهما. فما بدا بدائيا وعماء مشتتا تجمعت أجزاؤه معا.. ها هم الإرهابيون يعدون المشهد لمعركة ارماجدون»[48]* أما النسخة الأكثر دنيوية من أطروحة «القيامة الآتية» فوجدت التعبير عنها في توقع صمويل هنتنغتون لـ«صراع الحضارات" المحتوم (بالنسبة لهذه الأطروحة: انظر الفصل العاشر). وحرص بوش وبلير على القول إن "الحرب على الإرهاب" ليست صدام ثقافات أو

* المعركة النهائية بين قوى الخير والشر التي ستقع حسب النبوءة الإنجيلية قبيل يوم القيامة. (م)

صدام أديان على نحو محدد. لكن أعمالهما العدوانية ساعدت على إضفاء المعقولية على توقع هنتنغتون.

ما إن أعلنت الحرب حتى أصبح انتقاد إدارتي بوش وبلير أكثر صعوبة (انظر أيضا الفصل العاشر). إذ أصبحت ضرورة «دعم جنودنا» هي المهيمنة. كما كان انتقاد المؤسسة العسكرية أمرا محظورا ومحرما على نحو خاص، في حين أن سقوط القتلى من الجنود الأمريكيين ضاعف صعوبة معارضة الحرب. ومثلما قال مايكل مان: «أي انتقاد للحرب [في العراق] اعتبر على نطاق واسع لا مجرد تخلي عن الوطنية بل عدم احترام لموتانا»[49]. وبعد مقتل جوناثان كيبهارت (21سنة) في العراق، قال راعي الكنيسة المعمدانية المحلية ديفيد فوت: «حين أسمع أي شيء سلبي [حول الحرب على العراق] أعتبره موجها إلي شخصيا. أشعر أنهم يقولون ذلك بحق جون. فهو يبطل التضحية التي قدمها»[50]. في حزيران/ يونيو 2005، ومع تصاعد حدة العنف في العراق وارتفاع عدد القتلى من الجنود الأمريكيين باطراد، كتب مايكل ايغناتيف في «نيويورك تايمز»: «لا بد أن ينجح حلم توماس جيفرسون [الحرية للأمم جميعا]. إن من المهمات الأساسية في الحياة الأمريكية التعويض عن الخسارة، وإنقاذ التضحية من التجاهل والعبثية وإعطائها غاية وضيئة»[51]. بكلمات أخرى، يجب أن نجعل تضحية الجنود الأمريكيين ـ التي كان يؤيدها ـ هادفة وذات مغزى. تتردد هنا أصداء مزعجة للطريقة التي ساعد عبرها العنف السابق على تغذية الدعاية لمزيد من العنف اللاحق. وبعد أن لاحظ الحجة الشائعة على أن الجنود الأمريكيين في فيتنام تعرضوا لخيانة النخبة الليبرالية، كتب توماس فرانك عام 2004 يقول:

ربما يكون هذا أكثر انتصار ثقافي حققته النزعة المحافظة إدهاشا: فالروح الوطنية السائدة في الخمسينيات التي اعتبرت ذات مرة أنها حولت جيل فيتنام إلى

ضحايا، تعتبر اليوم قضية أضفى عليها الموت والمعاناة هالة القداسة. دماء الضحايا من الجنود لا تدعو إلى التشكك والريبة بل إلى الوطنية العمياء[52].

تجدد الحرب اللانهائية ذاتها بمثل هذه الآليات. ومن المهم في دلالته أن جون كيري اختار ألا يجعل فضيحة «أبو غريب» جزءا من حملته الرئاسية عام 2004 [53] إذ يمكن لانتقادات حرب العراق أن تعتبر بمثابة «إضعاف الروح المعنوية» للجنود. وحتى انتقادات كيري المترددة لحرب العراق استحثت بوش على التعليق (في المناظرة الأولى التي سبقت الانتخابات) بالقول: «أي نوع من الرسائل سيبعثها القول لجنودنا المعرضين للخطر: حرب خاطئة، في المكان الخطأ، والزمان الخطأ؟ هذه ليست رسالة يبعثها القائد العام».

وصل كولن باول إلى حد تبني جزءاً من هذا المنطق في مرحلة ما قبل الحرب. فحين علم في منتصف شهر كانون الثاني/ يناير 2003من بوش أنه مصمم على الحرب، قال إن الابتعاد سيكون بمثابة غدر بالرئيس، والجيش، والآلاف الذين سيذهبون إلى الحرب[54]. مرة أخرى نرى المنطق الغريب المتولد عن «الحتمية»: انطلاقا من ولائنا لجنودنا، يجب أن ندعم السياسة التي عرضتهم للخطر دون سبب وجيه. لا بد أن هذا النوع من المنطق المقلوب رأسا على عقب قد ساعد على توكيد اعتقاد بوش بأن المعارضة سوف تتراخى في وجه «الفعل الواثق» الجريء.

إذا استطاعت الحرب كبح الانشقاق وكتم المعارضة، فإن الحرب الدينية المقدسة قادرة على ذلك بدرجة أعلى. المعلق السياسي جورج مونبيوت أشار إلى أن إحساس الحكومة الأمريكية الملون بصبغة دينية بأنها تحمل «رسالة» كان يعني أن الخلاف معها ليس مجرد انشقاق؛ بل هرطقة. وبالطبع قد تعزز الحرب أيضا المشاعر الدينية. وحين تكون المعركة مستعرة، فمن المطمئن (والمشجع أيضا) الاعتقاد بأن الله معنا. وهذا بدوره يمكن أن يدعم شرعية الحرب:

جعل الناس يشبهون الدعاية

نقدم هنا مثالا آخر على الفعل كدعاية مستمدا من هانا ارندت:

> الصحيفة الرسمية الناطقة باسم الشرطة السرية النازية «شوارتز كوربس»، ذكرت بصراحة عام 1938 أنه إذا لم يقتنع العالم بعد بأن اليهود هم حثالة الأرض، فسوف يقتنع بسرعة حين يعبر متسولون بدون هوية، وبدون جنسية، وبدون مال، وبدون جوازات سفر، حدوده.. وذكرت رسالة وزعتها وزارة الخارجية إلى جميع السلطات الألمانية في الخارج بعد وقت قصير من مذابح نوفمبر 1938 أن «تهجير عدد لا يزيد عن مائة ألف يهودي يعتبر كافيا لإثارة اهتمام العديد من البلدان بالخطر اليهودي.. ألمانيا مهتمة جدا بالحفاظ على تشتت اليهود.. فدفعهم إلى جميع أرجاء العالم يستدعي معارضة السكان المحليين ويشكل بالتالي أفضل دعاية للسياسة الألمانية تجاه اليهود»[55].

أما كيف يطبق ذلك عمليا فمسألة أخرى، لكن نية الشرطة السرية النازية واضحة هنا. بل إن اضطهاد اليهود ـ محاصرتهم في «غيتوات» تتفشى فيها الأوبئة، وتمييزهم بأرقامهم، وجمعهم كالقطعان وراء الجدران والأسيجة في معسكرات الاعتقال، وتجويعهم وذبحهم بالجملة ـ كان عملية استهدفت نزع معظم التمظهرات المميزة للحياة البشرية العادية، مع المساعدة على رسم صورة جردت من الصفات الإنسانية تناسب لغة النازيين التي نزعت عنها الصفات الإنسانية.

يسهل بالطبع رؤية الفوارق المميزة بين الأحداث التي تناقشها هانا ارندت والانهيار الكارثي الراهن. وحتى في هذه الحالة، تعتبر «الحرب على الإرهاب» مثالا تقليديا على تحويل "الآخر" إلى صورة ذهنية سلبية ومسبقة التكوين رسمها (ونشرها وأذاعها) الذين يمارسون العنف. وهذا ينطبق على طرفي النزاع كليهما،

نظرا لأنهما يشتركان على ما يبدو في اهتمام واحد يتمثل في «إثبات» أن العدو وحشي وعنيف بالقدر الذي أصر كل منهما عليه دوما. في الحروب الأهلية والعالمية، ينزع العنف إلى اختلاق الأعداء الذين يزعم أنه أضعفهم أو قضى عليهم (انظر الفصل الثاني)، ويولد بالتالي شرعيته (الزائفة). فهم فرانتز فانون (وبعده ابن لادن) كيف يستفيد الإرهابيون من ظاهرة «الفعل كدعاية»: لاسيما باستخدام العنف لإظهار الوحشية الكامنة والمخبأة جزئيا التي يتصف بها عدوهم / مضطهدهم. «الشهيد» بالعربية هو «شاهد» على الحق أيضا ـ أي يوضح بأفعاله أو أقواله حقيقة خفيت عن الجمهور[56]. قال مارك يورغنزماير عن الإرهاب الدولي:

> ما يتوقعه مرتكبو أعمال الإرهاب هذه ـ ويرحبون به في الحقيقة ـ هو رد شنيع يعادل فظاعة أعمالهم. وعبر تحفيز السلطات الدنيوية للرد على الإرهاب بالإرهاب، يأملون بتحقيق هدفين اثنين: أولا، الحصول على دليل ملموس يثبت زعمهم بأن العدو الدنيوي (العلماني) وحش لا يعرف الرحمة؛ ثانيا، رفع الحرب الكبرى إلى السطح: الحرب التي قالوا لأنصارهم ومؤيديهم أنها خفية، لكن حقيقية[57].

أحد الأسس المنطقية للإرهاب هو: إذا لم تكن أمريكا تمثل تماما الإمبراطورية الشريرة التي روجنا لها في دعايتنا ومخيلتنا، فلنجعلها كذلك. هذا المنطق يستخدم من قبل الطرف الآخر أيضا: في الظروف التي صور فيها الإرهابيون بأنهم يحيطون بنا من كل حدب وصوب وعازمون على تدميرنا، فإن الأفعال التي تنتج تأثيرا عكسيا وتؤدي إلى تكاثر الأعداء الغاضبين، توفر على الأقل، وهي تقودنا نحو حياة الخوف، شعورا بالرضى المعرفي الزائف (خصوصا للزعماء الذين اختاروا هذا السبيل) على ما نعرفه: «أجل نحن على صواب، العدو قوي ومنتشر ومتغلغل وخطر فعلا، تماما كما صورناه؛ يجب مضاعفة جهودنا». يصعب تخيل أن بوش وبلير يرغبان عن قصد

بجعل الأمور أكثر سوءا؛ وحتى في هذه الحالة، فهما يسكنان عالما تولد فيه الحلول الجنونية شرعية (زائفة) لها ولهما. وفي الحقيقة، يبدو أن «الطرفين كليهما» في «الحرب على الإرهاب» منشغلان بهاجس رعاية وتغذية ما يفضلانه من كوابيس. على مستوى الحروب الأهلية، رأينا كيف يمكن لاتهام المتمردين بأنهم من «الأصوليين الإسلاميين» أن يكتسب بمرور الوقت درجة متزايدة من الحقيقة، كما في الشيشان والفليبين. فالمشاعر المعادية لأمريكا في معظم أرجاء العالم غالبا ما تعتبر «حقيقة واقعة»؛ لكنها، كما لاحظنا، ليست طبيعية ولا راسخة الجذور[58].

اعتبر العراق خطأ مصدرا رئيسا للإرهاب قبل الحرب، وأصبح كذلك بالفعل بعدها ـ وهذا تطور أعطى مصداقية زائفة للاتهام الأولي. الدعاية تحققت، والثمن كثير من التشويه والتحريف والعديد من الأرواح. ومثلما قال جون كيري في المناظرة مع بوش: «الرئيس تحدث لتوه عن العراق بوصفه مركزا للحرب على الإرهاب. لكن العراق لم يكن حتى قريبا من مركز هذه الحرب قبل أن يغزوه الرئيس»[59]. وحتى الهجمات على قوات الاحتلال سرعان ما وسمت بأنها «إرهابية»، والتهمة الشائعة لدى القيادة الأمريكية في العراق هي أن المقاتلين العراقيين يستخدمون التكتيكات الإرهابية[60]. لكن الهجمات على جنود الاحتلال ليست إرهابا: حتى تعريف وزارة الخارجية الأمريكية للإرهاب يتمحور على استخدام العنف ضد المدنيين[61]. فكيف يمكن تبرير تدمير مدينة بأكملها ـ مثل الفلوجة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004؟ أولا، يجب إعلان أنها تأوي «إرهابيين»؛ ثم إعلان المدينة ـ بعد أن يفر معظم سكانها مذعورين ـ منطقة حربية كل من فيها معرض للقتل على أساس أن من بقي من السكان لا بد أن يكونوا إرهابيين[62].

إضافة إلى تصنيع وتكثير الأعداء من خلال تعميق مشاعر الغضب، يمكن للعنف أن يسبب النزوح، وبالتالي «يلوث» «أهدافا» جديدة بعدوى جماعات العدو. وتفسر حالة ذهان الارتياب حتى النزوح الناجم عن عنفها بوصفه مؤامرة من قبل

حكومات شريرة عازمة على «إيواء» الإرهابيين. على سبيل المثال، يبدو أن أهم الصلات المزعومة بين صدام وابن لادن جسدها الأردني أبو مصعب الزرقاوي (دعاه بوش بـ«أفضل دليل» على الصلة الجامعة بين العراق و«القاعدة»)[63] الذي لجأ إلى بغداد هربا من الهجوم الذي قادته الولايات المتحدة على أفغانستان[64]. وهكذا، يساعد هجوم سابق في تبرير هجوم لاحق. وبعد سقوط بغداد، قيل إن الزرقاوي لجأ إلى الفلوجة، واستخدم ذلك كذريعة لتبرير تدمير المدينة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004 وقبل ذلك، في أيار/ مايو 2003، كثف المسؤولون الأمريكيون الضغط والانتقاد لإيران بحجة أنها تؤوي قيادات «القاعدة» والموالين لصدام حسين. سورية أيضا اتهمت بإيواء البعثيين العراقيين. لكن كان من الطبيعي أن يؤدي الهجوم على أفغانستان ثم العراق إلى نزوح العديد من أولئك الذين استهدفوا علنا إلى البلدان المجاورة. علق السير اندرو غرين، السفير البريطاني في سورية بين عامي 1991-1994 قائلا: «لا يمكن للسلطات السورية منع العراقيين من عبور الحدود الصحراوية البالغ طولها 400 ميل»[65]. وفي الحقيقة، أصبحت سورية مصدرا للجهاديين المشاركين في التمرد داخل العراق[66]، لكن هذه الحالة «المارقة» ليست سوى عاقبة متوقعة للهجوم على العراق، وليست دليلا يؤكد أن سورية دولة يتأصل فيها العداء لأمريكا أو هي جزء من «محور الشر» المتوسع. في عام 2005، كان المسؤولون الأمريكيون يتوقعون أن تشكل «الأماكن الشاسعة التي لا تخضع لسلطة أي حكومة» في القرن الإفريقي حاضنا لمقاتلي «القاعدة» العائدين من العراق[67] وهو توجه (أو إدراك) يمكن أن يفاقم المشكلات في تلك المنطقة. وبغض النظر عن تأثيرات النزوح، فإن التمرد في بلد محتل يوجد الفرص السانحة لاتهام البلدان المجاورة بالتآمر والتواطؤ، والرغبة في فصل التمرد عن «العراقيين العاديين»، التي توجد بحد ذاتها باعثا محفزا لتسليط الضوء على التدخل الخارجي. وبقيت الاتهامات الموجهة لسورية بتسهيل تدفق المقاتلين إلى العراق مستمرة وملحة طبعاً[68].

هنالك طريقة أخرى يمكن للعنف من خلالها أن يجعل الناس يشبهون الصورة المرسومة لهم في الدعاية، وذلك عبر إيجاد المناخ الملائم لجعل الصور التي تنزع الصفات الإنسانية عن العدو تبدو مشروعة وحتى ضرورية. عند ذروة الهجوم على العراق عام 2003، انضم مايكل سافاج إلى محطة «MSNBC» (مايكروسوفت ـ ان بي سي) التلفازية. وفي مراجعة شاملة ومفيدة لتحريف وتشويه المعلومات من قبل وسائل الإعلام، علق شيلدون رامبتون وجون ستوبر على سافاج بالقول:

> كان يشير بشكل روتيني إلى البلدان غير البيضاء باسم «أمم العالم المنحط»، ويقول إن الولايات المتحدة «استولى عليها المسوخ والعاجزون والمنحرفون والمصابون بعاهات عقلية». وفي أحد البرامج برر الطعن في الأعراق الأخرى باعتباره أداة للأمن القومي: «نحن بحاجة الآن لنماذج عنصرية منمطة لعدونا لكي نشجع محاربينا على قتل هذا العدو»[69].

وهكذا، قد تساعد الحرب ذاتها في إيجاد شعور بوجود عدو عديم الرحمة وعديم الإنسانية. وفي الوقت ذاته، عملت انتهاكات قوات التحالف داخل العراق على نزع الصفات الإنسانية عن العدو، لا من خلال تأجيج الغضب والعنف فقط، بل عبر تجريد الناس من كرامتهم الإنسانية. لاحظ تقرير أعده الجنرال جورج فاي أن الممارسات العامة، مثل المبالغة في تعرية المساجين، «يرجح أن تسهم في تصعيد ـ نزع الصفات الإنسانية ـ عن المعتقلين وتهيئ المسرح لحدوث مزيد من الانتهاكات الأشد فظاعة»[70]. إن العنف في الغالب عبارة عن عملية نسقية، توجد فيها الانتهاكات الأولية شرعية زائفة لفظائع تالية أشد قسوة[71]. علاوة على أن جزءا من وظيفة العنف المتطرف يتمثل في إقناع الضحايا أنفسهم بأنهم لا يستحقون التمتع بالحقوق: فإذا كانت لديهم حقوق، فلم إذن يتعرضون بشكل منهجي للهجوم والتجريد من الصفات الإنسانية؟ الجنرال جانيس كاربنسكي، التي أوقفت عن العمل

كقائد وحدة لإدارة السجون بسبب فضيحة «أبو غريب»، قالت إن الجنرال جيفري ميللر، القائد السابق لمعتقل غوانتانامو، أبلغها: «يجب تحويل هذا المكان» [أبو غريب] إلى غوانتانامو.. إنهم كالكلاب. إذا سمحنا لهم بالاعتقاد بأنهم أعلى مرتبة من الكلاب فلسوف نفقد السيطرة عليهم»[72]

ملاحظات ختامية

الاعتماد على «النصر» لتوليد الشرعية سيف ذو حدين بالطبع. فربما توجد حدود لمعقولية عمل لا ينجح بصورة واضحة، وانتقاد خيارات الحكومة الأمريكية يظهر على السطح ثم يشتد مع تزايد الصعوبات التي تواجه احتلال العراق. لاحظت هانا ارندت أن النازية انهارت فجأة كإيديولوجية حين عنت الهزيمة أنها لم تعد قادرة على دعم دعايتها بأعمال مؤثرة وناجحة. علاوة على ذلك، فإن أولئك الذين يزعمون أن الله يقف في صفهم ربما يكونون عرضة على نحو خاص لخسارة شعبيتهم ومكانتهم حين تعني الهزيمة أو الفشل ضمنا أن الله لا يؤيدهم[73]. ومع تباطؤ زخم الحرب في العراق وامتدادها أكثر من اللازم، تتحول الحماسة الأمريكية الشعبية إلى إحباط يحرر الناس من الأوهام المضللة والآمال الكاذبة. فاعتبار تطرف ووجهة الرد دليلا يثبت حدة ومصدر المشكلة آلية قد لا تنجح إلى الأبد.

لكن، يمكن التعويض عن ذلك كله بطريقتين اثنتين.أولا، من الممكن الحفاظ على مظهر النصر لمدة طويلة حتى حين يصبح الواقع يائسا. إذ إن للتقديم والعرض أهمية كبيرة (وهذه نقطة سوف نناقشها بمزيد التفصيل في الفصل العاشر). ولربما تكون الانتصارات الملحوظة والقصيرة الأمد أكثر أهمية من تحقيق تأثير إيجابي فعلي في المشكلة بالنسبة لمن يقوم بالتدخل. أما فوائد «الفعل كدعاية» فلا تستمد من تحقيق الفوز بل من التظاهر بتحقيقه. على سبيل المثال، ربما استطاعت الانتخابات في أفغانستان والعراق، لبعض الوقت على الأقل، تحقيق شيء من النجاح

المعقول ظاهريا انطلاقا من الكارثة التي حلت بالبلدين ــ الأمر الذي ساعد مؤقتا على تقنيع التأثيرات ذات النتائج العكسية الأكثر عمقا للهجوم عليهما والمشكلات البعيدة المدى لوضع الأمن والحكم فيهما.

ثانيا، حتى الإخفاق يمكن أن يضفي الشرعية على الرأي القائل إن على أمريكا وحلفائها تكريس طاقة أكبر لهزيمة الإرهاب. وفي الحقيقة، يبدو أن لأولئك الذين يشنون الحرب على الإرهاب مصلحة في الإصرار على أنهم يكسبون ويخسرون في آن معا. ومن المؤكد أن تلك رسالة مربكة ومشوشة، لكن الرسالة المختلطة تحظى بميزة مهمة هي تعذر دحضها. ويمكن توجيه أي نوع من الأدلة، وأي تحول إيجابي أو سلبي للأحداث، لصالح الخط الرسمي (المبهم). كل نصر يخلف وراءه فظائع جديدة ويستثير صراعا جديداً: «إسقاط طالبان تبعته تفجيرات بالي»؛ وإسقاط صدام تبعته تفجيرات مدريد؛ انتخابات أجريت في العراق، لكن تفجيرات وقعت لندن. يبدو أن المهمة لن تنجز أبداً: وكما قال مارك دفيلد بأسلوبه البليغ: «القضية تتعلق دوما بارتكاب مذبحة أخرى، والفوز بهذه الحرب التي ليست لها نهاية، وبعد ذلك سنصبح أحراراً». وما إن نتنفس الصعداء حتى نواجه قلقا جديدا يمسك بخناقنا. تقترب الحرب على الإرهاب من نهايتها؛ تعيش الحرب على الإرهاب!